

والشعراء والصلحين والمجددين .

وعلى ذلك رأيت أن الواجب يحتم على كمراني مهمة سمعة بلاده أن أدون بضع مقالات تتناول تلك النهضة في مجراها ، ولكن يلين بي قبل الخوض في هذا الموضوع أن أنشر ترجمة داود باشا وإلى بغداد في القرن المنصرم المدود من أكبر أركان النهضة الحديثة في العراق .

ولد داود باشا عام ١٧٧٤م في تفلين قاعدة ديار الكرج ، وكان مملوكاً نصرانياً اشتراه أحد النخاسين وجاء به إلى بغداد وعمره لم يتجاوز يومئذ الحادية عشرة ليهديه إلى أحد أمراءها ، فاشتراه منه مصطفى بك الربيعي وباعه لسلطان باشا الكبير وإلى الزوراء منذ سنة ١١٩٣ - ١٢١٧هـ ، ١٧٧٩ - ١٨٠٢م ، وقد ظهرت على عيانه غايل الذكاء وشمال الفطنة ، فلقنه العلم والأدب وأصول الديانة الإسلامية واعتنى بأمره أشد الاعتناء ، فشب داود محباً للعلوم والمعارف منفرماً بالفقهاء والشرعية شهماً فاضلاً صادقاً للهجة والعمل . وصفوة القول بذل سيده غاية جهده في تثقيفه وتهذيبه ، ليكون له في شيخوخته ركناً مكيناً ومعاوناً صادقاً إذا تفاقمت عليه الخطوب والازايا ، وقد تمتع في حياته بفرس عينية إذ رآه نابضة عصره فكان كاتباً محمداً ، وسياسياً محتكاً ، وقائداً مدرباً ، وبطلاً مغواراً ، ذا مقدرة عظيمة في فك المعضلات وحل المشاكل المويصة وأفاد الزوراء فوائد جمة حينما تولى إدارتها كما ستراه فيما يلي :

بعد أن تضاع داود من آداب اللغة العربية أخذ يتردد على أدائها الكبار وينظرهم في المسائل المهمة ، وكان أيضاً يناضل علماء الدين فيما وراء الطبيعة والقضاء والقدر والثواب والعقاب والخلود والحشر ونحوها من المسائل التي أرتجت عليه أبوابها ، وهكذا صرف شطراً من حياته ، ملازماً للعلماء الأعلام منزوياً للمطالعة ، وقد أتيح له أن يقرأ بعض المسائل الفقهية المويصة على يد السيد زين العابدين جل الليل .

كان مجلس المترجم حافلاً بوجوه الأدباء والشعراء ومشاهير الكتاب ، فكان يطارح هذا ويناقش ذاك ، وينظم القصائد ويذكر شمة المنافسة والباراة بين شعراء قطره ، ويمتدح الأدباء

داود باشا ونهضة العراق الألبية

في القرن التاسع عشر

للرحوم الأستاذ رزوق عيسى

تذهب طائفة كبيرة من الأدباء والكتاب إلى أن العراق لم يكن له نهضة أدبية علمية في القرن التاسع عشر كما كان في ديار مصر وسورية ، وهذه فكرة خاطئة لأن تبشير تلك النهضة المباركة كانت بادية في حواضر العراق كبغداد والموصل والبصرة والحلة وكربلاء والنجف . غير أن الأدباء الذين دونوا كتباً ورسائل عن النهضة العربية في ذلك الزمن أغفلوا ذكر العراق وما كان عليه من النهوض في العلم والأدب والإجتماع . ومصادقاً لقولنا أن الأستاذ أنيس زكريا النصولي لما وضع كتابه « أسباب النهضة العربية » الذي نشره عام ١٩٢٦م لم يشرك القطر العراقي في تأليفه بصحيفة واحدة .

إن ما يؤاخذ به واضع ذلك السفر أنه لم يكتب كلمة واحدة تشير إلى ما كان عليه العراق في أوائل القرن التاسع عشر من النهضة الأدبية والعمرانية مع أن عنوان الكتاب : « أسباب النهضة العربية » ، وقد اقتصر المؤلف على ذكر أسباب النهضة في القطرين السوري والمصري .

لقد استاء فريق من أدباء العراق وامتنع بعضهم وعدوا ذلك الإهمال والسكوت التام إهانة كبيرة لإقليم عربي كانت تبشير تلك النهضة بادية في معظم حواضره ومدنه ، وقد انتقد المؤلف الأستاذ سليم أفندي حسون محرر جريدة (العالم العربي) والأب أنستاس الكرملي في مجلته لغة العرب .

وفي نظري أن صاحب الكتاب المشار إليه لم يكتب صحيفة واحدة عن أسباب تلك النهضة في ديار العراق لبين ، إما لجهله ما كانت عليه بلادنا من النشور الأدبي والعلمي أو لتجاهله ، فإن كان الأول فهو مذمور ، وإن كان الثاني فلا يذمر إذ قد سكت عمداً عن قطر عربي أنجب طائفة كبيرة من العلماء والأدباء

على التأليف والتصنيف ويجزل المعطاء لمن يفوق أخذانه حتى قيل إنه لم يقو على مفارقة الأصحاب ساعة واحدة ، وكان يصحب معه فريقاً من خواصه في رحلاته ، يجلس وإياهم في وقت فراغه ، ويتناول المباحث على أنواعها من سياسية وإدارية وأدبية ، وقد اشتهر عند الخاص والعام بحب العلم والعلماء ، حتى لقب بعالم الوزراء ووزير العلماء ، وكانت ترد عليه القصائد الرثائية والرسائل البليغة في مدحه والثناء على أعماله الحميدة ، وقد أناط بمهدة جماعة من أدباء بغداد أن يضموا الكتب الأدبية والمالية للقطر المراق فامتلأوا أمره ومنهم من جمع ديوانه وقد فقد ، وله غير آثار أدبية وكان عالماً شاعراً وإدارياً محسناً وقائداً مدرباً .

جلس داود ياشاعلى منصة ولاية بغداد في ٥ ربيع الآخر سنة ١٢٣٢ هـ - ٢٢ شباط ١٨١٧ م ، فقررت به الميون ، ووفد عليه العلماء والشعراء من كل فج عميق بهنثونه يلوغ الراد ، وما كاد يجلس على منصة الحكم حتى أجرى إصلاحات عديدة ، منها إصلاح طريقة تعليم العربية . وقد روى أنه أراد أن يتقن العربية ويتقن بأساليبها ، ويقف على شواردها ونوادرها ، فأحضر أحد لغويها الفطاحل في عصره وطلق يتلقن عنه آدابها مدة . ففي أحد الأيام بينما كان أستاذة يقرأ عليه نبذة من علم النحو ويفسر له قواعده وشوارده بأمثلة قديمة مستطرفة سم تلك الأمثلة البالية كضرب زيد عمرراً وقتل خالد بكرراً ، وخطر له إذ ذاك أن يسأل شيخه على سبيل الداعبة عن الجناية التي جناها عمرو ليستحق أن يضربه زيد كل يوم ، ويشكل به هذا التشكيل الشديد مع أنه ربما لم يأت أمراً فرياً . وهل كان عمرو جباناً أو رجلاً ساقط المهمة ذليل النفس إلى هذه الدرجة حتى أنه يفض الطرف عن الإهانة الملحقة به في كل لحظة ، ويتجرع غصص الآلام المبرحة عن طيب خاطر ، وهو ساكت لا يبدي أقل حراك .

استغرب الأستاذ ذلك الكلام كل الاستغراب وعده من قبيل الأوهام ، ولم يتالك أن استلقى على قفاه من شدة الضحك ، ثم قال للدولة الوالي ليس في الواقع يا مولاي ضارب ولا مضروب

بل اعتاد النجاة من قديم الزمان أن يأتوا بأمثلة لتقريب القواء الذخيرية والصرفية من أذهان طلاب المربية . فلم يرقه ذلك الجواب وعده أو هي من نسيج العنكبوت ؛ فلما طلب منه المزيد استاء الشيخ من حاجته في مسألة نافهة جداً فسكت ولم ينبس ببنت شفة ، فاستشاط الوالي غضباً وأخذ يحرق الأرم وعد ذلك السكوت احتقاراً لشأنه وإهانة ليس وراهها إهانة ، ثم قال للأستاذ بلهجة التهكم والشرر يتطابر من عينيه : أيها الشيخ الوقور ما كان يدور في خلدي أن بضاعة علمك خفيفة هذه الخفة ، وكنت أظنك أجل من أن تمجز عن الجواب في مثل هذه المسألة البسيطة التي ربما أجاب عنها أولاد المكاتب ، ثم أمر الحاجب بأن يأتي بنفر من الشرطة ، ويقاد إلى السجن ذليلاً صاغراً ليلقى هناك جزاء جهله وغباوته . ثم استحضر نحوياً آخر وألقى عليه ذلك السؤال بعينه ، فأجابه بنحو ما أجاب الأول ، فغضب عليه وأمر بسجنه أيضاً . وما زال يأتي بالنحويين واحداً بعد واحد ويسجنه حتى أتى على آخرهم ، فأقمرت المدارس والكليات من النحويين ، وضائق بهم غرف السجون على رحبها ، وأصبحت هذه القضية الشغل الشاغل له ولبطانته عن جميع شؤون الدولة ومصالحها . فلما ضاق ذرعاً ولم يدر ما يعمل فتنق له عقله أخيراً أن ييث الميون في اقتفاء خطوات النجاة ، ليمرض عليهم ذلك السؤال الذي أصبح لديه أعقد من ذنب العنكبوت .

وبينا هو غائص ذات يوم في بحر تلك الأوهام إذ بلغه أنه في المدينة نحوى بارع طاعن في السن قد تنحى عن منصة التعليم منذ بضع سنوات وهو ملازم داره ، فأمر في الحال بإحضاره ، فلما مثل بين يديه أعاد عليه السؤال واستطلع رأيه فيه . فأنطق ساعة ، ثم رفع رأسه وأمارات الفوز بادية على عيائه الجليل وقال : إن الجناية التي أتاها عمرو يا مولاي لجسيمة جداً ، ولا أراى مبالفاً إذا قلت إنه يستحق أن ينال من القصاص أضفاف ما نال . فنفض صاحب الترجمة الصعداء وذهبت عنه كربته ، ثم سأله بلهجة المتلوف : وما هي تلك الجناية يا عماء ؟ قال الشيخ بكل هدوء إن عمرراً القليل الحياء هجم على اسم دولتكم بدون إذنكم

وهرى السيف^(١) الواقع في الجانب الغربي من بغداد « الكرخ »
وقد أرخ بناء الشيخ صالح التميمي بقوله :
أقسم بالله الذي زينت سماؤه بالخنفس الكنفس^(٢)
أن الذي شيد هذا البناء ذو همه بالفلك الأطلس
داود ذا الأيدي ومن حمله ماحل في شخص سوى هرمس
فقل لن يرغب في مكسب من ناطق فيه ومن أخرس
أوف إذا كنت ومن بعد ذا أرخ والميزان لا تبخنس
١٢٤٠ هـ

رزوق هبسي

(ينبع)

(١) ذهب بعض المراقين إلى أن لفظة « سيف » بالكسر أعجبية
غير أنها عربية ومعناها : ساحل البحر وساحل الوادي ، وقد يقال لكل
ساحل سيف ، ويراد بالسيف في بغداد عدة مواطن متتالية متحدة يدخر
فيها القمح اليوم ، ولأنما سمي بالسيف لكونه شيد على شفة نهر دجلة
على ما أظن .
(٢) الخنفس الكواكب أو السيارة منها أو النجوم المحيطة . زحل
والشعري والريخ والرهرة وعطارد ، والكنس هي كل النجوم لأنها
تبدو ليلاً وتختفي نهاراً

نهاية الطريق

« مجموعة من القصص للأستاذ السيد الدالي .
وهي نوعان . قصص رمزية وقصص واقعية . وفي
الكتاب صفحات مشرقة تدل على أسالة في الملبك
وسعة الخيال . أما الأسلوب فهو مترابط الأجزاء في
السرود والآراء » .

« آخر ساعة »

واغتصب منه الواو^(١) ، ولما كان ذلك منافياً لحكم العدالة رأى
الدعويون من باب اللياقة والإنصاف أن ينتقموا من عمرو
لوقاحته انتقاماً شريفاً ، فسلطوا عليه زيدا الصارم ، وأمروه أن
يذيقه جهاراً كل يوم في ردهات التدريس وغرف المكاتب من
الغذاب ألواناً ، حتى كثيراً ما يرمى على ذلك المسكين من شدة
السياط جزاء سلبه وسرقته ، فأعجب صاحب الترجمة بذلك الجواب
كل الإعجاب وأحله عملاً رفيكاً بين أبناء الأعراب ، وقال له إنك
حقاً لنادرة الزمان وأديب العراق وخراسان والعالم الكبير المشار
إليه بالبنان . فأسألك ألا تخرج من هنا ما لم تطلب مني ما تشاء
فأمرك مطاع وطلبك مقضية ، فقال له الشيخ إذا كان لابد من
طلبتي فأتوسل إليكم أن تطلقوا سبيل زملائي المسجونين الذين
تركوا عيالهم ومن يلوذ بهم عالة على ذويهم ، فأمر في الحال
بإطلاقهم وأعاد عليهم رواتبهم التي كانوا يتقاضونها في غرة كل
شهر ، غير أنه اشترط عليهم أن يصلحوا طريقة تعليمهم العربية
وينهجوا منهجاً جديداً ، ثم أنعم على ذلك الشيخ الرفيع المنزلة
بالجوائز والصلوات وقربه من مجلسه ، وأمسى من تلك الساعة
مرشده الوحيد في اللغات ، وساعده الأيمن في حل المشاكل
المويصة حتى وافاه الأجل المحتوم فمظم موته على صاحب الترجمة
وحزن عليه حزناً شديداً ، وقد شيع نعشه بنفسه مع حشمه
وأعيان المدينة .

وقد أفاد داود باشا الزوراء فوائد كثيرة ، فمن جملة هذه
الفوائد تنظيمه الجيش على الطراز المشهور في عصره وجلبه الصناعات
المهرة والأساتذة البارعين من ديار الإفرنج وسائر أقطار العالم
التمدنين ، وإقامته دار صناعة « ترسخانه » ، أي معمل لصنع
الأدوات الحربية والدافع والقنابل والبنادق ونحوها من المهمات
والذخائر العسكرية وتأسيسه المدارس ، وإنشاؤه دوراً للحلم والأدب
وتشييده المكاتب العامرة الحاوية من الكتب المخطوطة النفيسة
وغيرها من المطبوعات ، وإصداره جريدة باسم « جورنال العراق »
وكانت تطبع بمطبعة حجرية ، وتمييزه الجوامع ، وشقه الترع
والأنهار . ومن بعض آثاره الباقية حتى الآن جامع الباب
الشرقي المرفوف اليوم بمجامع السادة وجامع الشكنة في الرصافة ،

(١) يشير الشيخ بذلك إلى زيادة وار « عمرو » لأن من سها أن
تكتب بدوتها وال إسقاط الواو الثانية . من داود في الرسم لاذ كان يجب
أن يثبت لها واوان بـ يا على اللفظ أي « داود » .